

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قطرة ماء

الحمد لله، ما أكثر من السحاب مطره، وما أعجب ماءه وقطره! قطرة من السماء تحيي في الأرض بذرة، وتفتح زهرة، وتنبت من الباسقات نخلاً وشجرة، قطرة تروي ظمآن فترد عليه نفسه، وقطرات تجتمع فتحيي بستاناً، وتنحدر من جبل فتصنع جداول وأنهاراً، وقطرات تتابع فتملاً قيعاناً وودياناً، ما أعجب القطرة! لينة رقيقة، ولكن الله جعل فيها مستودع الحياة، وجعل بها للخلق نجاة.

والأعجب من القطرة أن الماء واحد، ينزل من سماء واحدة، على أرض واحدة، فتشربه أراض متجاورة؛ فتخرجه هذه نخلة حلوة، وتخرجه تلك شجرة مرة، وهذه ثمرة حمراء وتلك صفراء، وهذا غذاء وذاك دواء؛ يسقى

بماء واحد، لأن الخالق أحد واحد: ﴿وَنُفِضَ بَعْضَهَا عَلَى
بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ الرعد: ٤.

ولم يجعل الله الماء آية للحياة فحسب، بل ضرب
به مثلاً لحياتنا نحن، لهذه الدنيا التي نعيش فيها ونتنافس
عليها، فقال سبحانه: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ
مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا﴾ الكهف: ٤٥

فلماذا شبّه الله الدنيا بالماء؟

حتى تفهم لطائف التشبيه في الآية: تأمل الماء بين
يديك؛ لا تستطيع أن تقبض عليه طويلاً، كلما أحكمت
عليه أصابعك تسلك من بينها. وهكذا الدنيا؛ مهما قبضت
منها، ومهما جمعت من مالها، وامتلكت من دورها،
وبلغت من مناصبها، فلا بد أن تفارقها أو تفارقتك. كم
من بيتٍ بناه صاحبه ولم يسكنه أو فارقه! وكم من مالٍ

جمعه صاحبه ثم اقتسمه غيره! وكم من إنسان ملأ الدنيا حركةً وحديثاً، ثم أصبح خبراً يُروى واسماً يُذكر! ^(١).

ومن عجيب الماء أن الله يحيي به ويهلك به؛ قطراتٌ تنزل رحمةً فتحيي الأرض، وقطراتٌ تتابع بأمر الله فتغرق الأرض: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۚ﴾ فما أضعف القطرة، وما أعظم قدرة من يصرفها!

ومن لطائف الشبه بين الماء والدنيا أن الماء إذا كان بقدرٍ نفع وأحيا، وإذا جاوز قدره أضُرَّ وأهلك؛ وكذلك الدنيا، ما كان منها كفافاً نفع، وما زاد منها فأشغل القلب وألهاه أضُرَّ بصاحبه ووقع. قال القرطبي: «وكذلك الدنيا: الكفاف منها ينفع، وفضولها يضر» ^(٢). فليست المشكلة أن تكون الدنيا في يدك، وإنما البلاء أن تستولي على قلبك.

(١) وهذا المعنى مفهوم من كلام القرطبي (٤١٢/١٠).

(٢) المرجع السابق (٤١٢/١٠).

ثم تأملوا خاتمة المثل: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾^(١)
ذلك النبات الذي كان يملأ العين خُضرةً وحُسناً أصبح
فُتَاتًا يابسًا تتقاذفه الرياح. وهكذا الدنيا: شبابها إلى هرم،
وصحتها إلى سقم، واجتماعها إلى فراق، وكل ما يملأ
العين منها اليوم مآله إلى زوال.

وإذا كان الله قد ضرب لنا بالماء مثلاً نتعظ به، فإن
الماء نفسه نعمةً عظيمةً يجب أن نعرف قدرها ونحفظ
حقها، ونحن في هذه البلاد الجافة أخرى الناس بمعرفة
قدر القطرة، ولقد عرف المسلمون قيمة الماء منذ عهد
النبوة؛ فقد ماتت أم سعد بن عبادة رضي الله عنه، فقال
سعد: يا رسول الله، إن أُمِّي ماتت، فأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟
قال: «**الماء**». فحفر بئراً وقال: «**هذه لأم سعد**»^(١).

وتصوروا -عباد الله- أن تستيقظوا يوماً، فتفتحوا
الصنابير فلا ماء! تبحثون عنه في الخزانات فلا ماء! قال

(١) روله أبو داود.

الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾

الملك: ٣٠ قال ابن كثير: «فلا يُنال بالفؤوس الحداد، ولا

السواعد الشداد»^(١). سؤال جوابه مستقر في قلب كل

مؤمن: لا يأتي بالماء إلا الله.

وهل فكرت يوماً وأنت تفتح صنبور الماء في بيتك

بالرياض: من أين جاءت هذه القطرة؟ جزء من مياه

الرياض كان ماءً مالحاً في الخليج، حُلِّي في رأس الخير،

ثم دُفع إلى قلب الصحراء عبر منظومة ضخمة لنقل

المياه، بطاقة تقارب تسعمائة ألف متر مكعب يومياً، ومن

خلال ثلاث محطات للضخ. قطرة كانت في بحر مالح،

فُنزعت ملوحتها، ونُقلت عبر الصحراء حتى وصلت إلى

بيتك؛ أفتركها بعد ذلك تجري بلا حاجة؟

لقد كان نبيكم ﷺ يتوضأ بالمُدِّ (وهو ملء

كفِّي الرجل المعتدل إذا جمعهما) ويغتسل بخمسة أمداد.

(١) في تفسيره (٢٠٣/٨)

ماء قليل، وبركة عظيمة، وعبادة كاملة. فليس إسباغ
الوضوء بكثرة الماء، وإنما بإيصاله إلى مواضعه واتباع
سنة النبي ﷺ.

وإذا أمسكت بكأس الماء اليوم، فتذكر قول ربك:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ

﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ الواقعة: ٦٨ - ٧٠

قطرةً بدأنا بها حديثنا، وقطرةً نختم بها: فلا تحتقر

وعاء ماء، ولا تستهن بنعمة؛ فإن النعم بالشكر تدوم،

وبالشكر تزيد ﴿ لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ إبراهيم: ٧

وُلِّبَ فِي ٢٩ / ٣ / ١٤٤٨ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد

اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع
الأبرار، اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأصلح أحوال
المسلمين، واحقن دماءهم، واجمع كلمتهم على الحق
والهدى.

اللهم وفق خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن
عبد العزيز آل سعود لما تحب وترضى، اللهم ألبسه لباس
الصحة والعافية، ووفق ولي عهده محمد بن سلمان وأعنه
على كل خير، ووفقه لما فيه صلاح البلاد والعباد.
اللهم احفظ جنودنا ورجال أمننا، واحرسهم بعينك
التي لا تنام، وانصر المرابطين على حدودنا.
ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا
عذاب النار، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد.